



# حول التعليم والتعلم وصناعة الإنسانية

بقلم: د. علي حبيش

أستاذ متفرغ بالمركز القومي للبحوث - نقيب العلميين

ويرسخ قيم العلم والعدل والحرية والوحدة والإحسان في العمل، ويقيم مشاعر العدل والسلام في عقول البشر.

إن التنمية البشرية لا تنفصل عن التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وفي زمن التلوث الفكري والسمعي والبصري والمائي والهوائي والأرضي، نريد تعليمًا يبني قنوات التغيير من التزامن المحكم إلى الزمن المرن، ومن التركيز الجغرافي إلى الانتشار، ومن الاعتماد على الحكومات إلى الاعتماد على الذات والمؤسسات، ومن ديمقراطية التمثيل الشمولي إلى ديمقراطية المشاركة الشعبية، ومن التخطيط الجزئي إلى التخطيط الكلي الذي يعمل حسابًا لكل عناصر الموقف أو النظام.

إن المنهجية السابقة تحتاج إلى تكوين نوعيات من المعلمين عالية الكفاءة، رفيعة المستوى الأكاديمي والمهني والأخلاقي.. نوعيات فعالة في عمليات التغيير الاجتماعي، وليست مجرد أدوات للحفاظ على الأوضاع القائمة.

لابد من الحصول على معلم قادر على بناء الشخصية المستقلة القادرة على التعلم الذاتي، والبحث عن المعلومات في مصادرها، وعلى انتقاء المعلومات، وتحليلها ونقدها وتنظيمها، وعلى الاستخدام الأمثل لها، وتوظيفها في حل المشكلات.

للحصول على هذه النوعية من المعلمين لابد من الاهتمام بمهنة التعليم باعتبارها مهنة صناعة الإنسانية، والأساس في رقي الإنسان وتقدم المجتمع. ويكون ذلك بالدرجة الأولى عن طريق تعزيز مكانة المعلم الأدبية والمادية والاجتماعية، وربطها بالمؤسسات الجامعية والتربوية، وحفز العناصر المتميزة على الانخراط في هذه المهنة المقدسة.

## المعلم الفعال

باختصار، إنه لا سبيل إلى الدخول إلى القرن الحادي والعشرين، وإلى الإسهام في بناء المستقبل في ذلك القرن، وإلى الاحتفاظ بمكان فيه -فضلاً عن مكانة- إلا بمعلم قادر على الإسهام الفعال في التعلم الذي هو علم صناعة الإنسانية، وعمارة الأرض، وترقية الحياة.

## نريد تربية جيدة ترقى بالإنسان إلى مستوى القرن الحادي والعشرين.. من خلال برامج تزرع في المواطن: الإخلاص في العمل والسعي إلى تطويره

بين عناصر البناء والارتقاء.. ولننظر إلى اليابان التي لا تملك الكثير من الموارد الطبيعية.. ولكنها تملك ما هو أهم وأخطر من كل الثروات.. تملك إنسان التنمية القادر على تفجير منابع الثراء وتحويل التراب إلى ذهب.

وفي عصر العولمة، نحتاج إلى تعليم يحفظ للأمة هويتها وتميزها وخبرتها. وفي عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وعصر تدفق المعلومات وتسارعها، نحتاج إلى تعليم يؤدي إلى تنوع البشر وتميزهم وقدرتهم على تلقي المعلومات وتنظيمها وحسن استخدامها في التفكير والتعبير والاتصال والإنتاج وبناء العلاقات.

وفي عصر تناقص الموارد غير المتجددة من طاقات وخامات، نريد تعليمًا ينتقل بالأمة من الصناعات التقليدية إلى صناعات جديدة، وخدمات جديدة، ويعتمد على التكنولوجيا في استنباط طاقات وخامات جديدة، ينتقل بها من العمالة العضلية إلى العمالة العقلية، ومن التخصص الضيق إلى المرونة والمعرفة الشاملة، ومن المركزية إلى اللامركزية، ومن التنظيم الهرمي إلى التنظيم الشبكي، ومن الاقتصاد المتأثر بعوامل داخلية فقط إلى الاقتصاد المتأثر بعوامل داخلية وخارجية، ومن النمطية إلى التميز، ومن الخيار الواحد إلى الخيارات المتعددة.

## التعليم والقيم

نريد تعليمًا يبني -قبل كل شيء- الإيمان بالله، والأخوة في الله، والأخوة في الإنسانية،

لا تنمية ولا تقدم بدون تربية وتعليم تؤهل الإنسان المصري للتعامل مع هذه العملية الشاقة المعقدة؛ فأول شروط التنمية هو بناء إنسان التنمية.

إن التنمية في عصر الثورة العلمية والتكنولوجية المعاصرة، أو ما يسمى بعصر الموجة الثالثة والانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع ما بعد الصناعي تأخذ شكلاً غير مسبوق يتمثل في التنمية الاعتبارية؛ حيث تشكل شبكة الاتصالات بأنواعها السمعية والبصرية والمرئية والمجسمة، بديلاً عن الاجتماعات والتجمعات والاتصالات التقليدية.. وحيث تزداد قيمة العلم والتعليم وتناقص، كميون أساسي، يحل محل رأس المال وقوة العمالة التقليدية، والمواد الخام، والأرض -في بعض الأحيان- وغيرها من عناصر الإنتاج التقليدية.. وحيث يلعب الذكاء الصناعي، والحقيقة الاعتبارية، والمحاكاة، دوراً جديداً في رسم السياسات.. وحيث أصبح في مقدور الحاسبات العظمى، والإنسان الآلي، والذكاء الصناعي، وعلم الفوضى أو التعقيد -دراسة المستقبل، وتوقع أحداثه، وتحديد احتمالاته، وأصبحت التنمية الحقيقية، هي تنمية قدرة المعرفة، وقدرة الابتكار، وقدرة الاقتحام والاكتشاف، وأصبحت التنمية الاعتبارية الوريث الشرعي والفعلي للتنمية الأفقية.

## تربية راقية

نريد تربية جيدة ترقى بالإنسان إلى مستوى القرن الحادي والعشرين.. نريد برامج ووسائل تربوية تزرع في الإنسان المصري من جديد التفاني في العمل والإخلاص في ذاته والسعي إلى تطويره.. إلخ. نريد برامج تعليمية تخرج من ظلام الحفظ والتلقين وتدخل به إلى آفاق القرن الحادي والعشرين، حيث يعتمد التعليم على التحليل والتدريب والتعلم من خلال التعاون مع آخرين. نريد تعليمًا حديثاً متفوقاً من أجل التنمية لا تعليمًا مقطوع الصلة بالتنمية.

إن العقبة الحقيقية التي تخنق التنمية وتوقف انطلاقها ليست أبداً في ندرة الموارد.. ولا نقص في التمويل. إنما العقبة الحقيقية تكمن في غيبة إنسان التنمية؛ فهو العنصر الأهم والأخطر من



والمعلم في النظام التعليمي الرائد، لا بد أن يكون قدوة فكرية، وقدوة نفسية، وقدوة تربوية، وقدوة اجتماعية.. فهذه حقيقة من حقائق الوجود التربوي.. بل والوجود الاجتماعي كله. فإذا لم يُعد هذا المعلم إعداداً جيداً، للقيام بهذا الدور، فلا أمل في التعليم، ولا قيمة للتكنولوجيا، ولا سبيل إلى بناء العدل والسلام في عقول البشر.

إن العقول الإنسانية المبتكرة هي القوة المحركة الأولى للحياة الإنسانية.. فقد خُلِق كل فرد كوحدة اقتصادية منتجة، لنفسه ولأسرته وللمجتمع والعالم. لذلك فإن الاستثمار في التكنولوجيا الحديثة لا يكون ذا قيمة لو لم يقابل باستثمار مماثل في القوى العاملة التي تتولى إدارة وتشغيل وتوظيف هذه التكنولوجيا. وإذا كان التعليم يستهدف أكمل وأشمل تطوير ممكن للفرد، فإن التدريب يستهدف مباشرة ربحية الإنتاج؛ لأن التدريب يهتم بطرق إنتاجية موجودة فعلاً. أما التعليم -وعلى الأخص الجانب منه الذي يتعلق بالعلم والتكنولوجيا- فإنه يهتم بمحاولة فهم طرق إنتاجية ربما لم توجد بعد.

### إنجاز نفسي

بعد هذا العرض المختصر للتعليم والتعلم وصناعة الإنسانية أتذكر بكل ثقة صيف هذا العام -عام ٢٠٠٩- الذي قضيت معظمه في ألمانيا؛ حيث قمت بزيارات استغرقت خمسة وعشرين يوماً زرت خلالها خمسة معاهد للبحث والتطور في مجالات علوم وتكنولوجيا وابتكارات الصناعات النسيجية في مواقع تغطي شرق ألمانيا وغربها. ثم يستقر بي الحال في مدينة مان هايم؛ حيث مقرنا الدائم لأقضى فيه إجازة الصيف. وأسوة بالعام السابق فقد انتهيت في صيف هذا العام من قراءة القرآن الكريم للمرة السابعة والعشرين كاستمرار للقراءة الأولى التي قمت بها في سبتمبر ٢٠٠٤. بمعنى أنني قرأت القرآن ٢٧ مرة خلال الخمس سنوات الماضية. ومن فرط سعادتي وحبي لهذا الإنجاز النفسي المعنوي الثقافى المعرفى، فقد حرصت على قراءة كتاب «أنبياء الله» للمرة الثانية. مؤلف الكتاب الكاتب الصحفى الكبير الأستاذ أحمد بهجت وصدر الكتاب عن دار الشروق للنشر.

في مقدمة هذا الكتاب يجيء ثناء وحمد لله الواحد الأحد على لسان مؤلفه، وعشت في رحاب كلماتها، وتفاعلت مع معانيها، وحفظتها عن ظهر قلب، والآن أنقلها لكل قراء «العلميون». ورد الثناء والحمد في افتتاحية كتاب كاتب مصر العظيم الأستاذ أحمد بهجت على النحو التالي:

- يارب العالمين سبحانك

- يا فاطر السموات والأرض سبحانك

- يا بديع السموات والأرض سبحانك

- يا نور السموات والأرض سبحانك

- يا رفيع الدرجات يا ذا العرش المجيد سبحانك..

لك الحمد والكبرياء والمجد.

- يا عالم الغيب والشهادة سبحانك

- يا عالم السر والنجوى سبحانك

- يا عالم السر وأخفى سبحانك

## عصر العولمة.. يحتاج إلى تعليم يحفظ للأمة هويتها.. وتميزها وخبرتها.. ويساعد على تلقي المعلومات وتنظيمها وحسن استخدامها

- يا من إذا قضى أمراً فإنه يقول له كن فيكون سبحانك

- يا من بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع الأمر كله سبحانك

- يا من يصلى علينا وملائكته ليخرجنا من الظلمات إلى النور سبحانك

- يا رب السموات والأرض وما بينهما سبحانك

- يا رب المجرات والنجوم والكواكب والأفلاك والأبعاد سبحانك

- يا رب المشرقين ورب المغربين سبحانك

- يا رب المشارق والمغرب سبحانك

- يا رب السموات السبع وما أظللن سبحانك

- يا رب الأرضين السبع وما أظللن سبحانك

- يا رب التوراة والزبور والإنجيل والقرآن سبحانك

- يا رب موسى وهارون سبحانك

- يا رب داود وسليمان سبحانك

- يا رب يحيى وعيسى سبحانك

- يا رب محمد وإبراهيم سبحانك

- يا رب آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران سبحانك

- يا رب الملائكة والروح القدس سبحانك

- يا رب جبريل وميكال سبحانك

- يا رب سدة المنتهى سبحانك

- يا رب جنة المأوى سبحانك

- يا رب الفردوس الأعلى سبحانك

- يا رب الجحيم سبحانك وحنانك.. أعتق رقابنا

من النار برحمتك يا أرحم الراحمين

- يا مالك يوم القيامة سبحانك

- يا صاحب الأسماء الحسنى سبحانك

- تباركت يا ربنا وتعاليت.. لا نحصى ثناء عليك..

أنت سبحانك كما أثنت على نفسك

- ربنا لك الحمد حمداً طيباً مباركاً فيه

- ربنا لك الحمد حمداً يوافق نعمك ويكافئ

مزيدك.. وليس هناك حمد يوافق نعمك ويكافئ

مزيدك

- ربنا لك الحمد حمداً لا ندرية ولا تحصيه على

نعم لا نحصيها ولا ندريةها

- ربنا لك الحمد حمداً ينبغى لجلال وجهك

وعظيم سلطانك وقديم إحسانك

- أقول هذا عدد خلقك.. وزنة عرشك.. ومداد

كلماتك.. ورضا نفسك.. وواسع رحمتك

- أقول هذا حتى ترضى يا أكرم الأكرمين يا رب

العالمين

«سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام

على المرسلين، والحمد لله رب العالمين».

وفى الختام أسأل الله العلى القدير أن يبارك

فى مؤلف وصاحب وكتابت هذا الثناء وهذا الحمد

-الأستاذ الكبير أحمد بهجت، وأدعو كل الزملاء

والزميلات وكل قراء مجلة «العلميون» أن يأخذوا

به قولاً وعملاً وسبحان الله ولا إله إلا الله ولا

حول ولا قوة إلا بالله وما تشاؤون إلا أن يشاء الله

رب العالمين وكل عام وأنتم بخير وعيد الأضحى

المبارك على الأبواب.